مقالات

الأطفال الخوارق
دراسة حالة من السودان*

أ. د. عمر هارون الخليفة
معهد البحوث الاقتصادية والاجتماعية، وزارة العلوم والتقانة ـ السودان
مندوب المجلس العالمي للأطفال الموهوبين في السودان
okhaleefa@hotmail.com،e.mail

مقدمة

أجريت في الغرب العديد من الدراسات حول الأطفال الخوارق، منها على سبيل المثال لا الحصر، دراسات الأطفال الخوارق، والأطفال الحكماء البلهاء، وأطفال وليامز (Morelock & Feldman, 2000). والأطفال الخوارق هم الذين يكون عمرهم أقل من 10 سنوات، ويقومون بأعمال الراشدين (Morelock & Feldman, 1999)، ولم تظهر الدراسات علاقة قوية بين إنجاز الأطفال الخوارق ودرجات الذكاء غير العادية (Feldman, 1980)، وعموماً تراوحت درجات ذكاء الأطفال الخوارق بين 120-200 (Morelock & Feldman, 2000). وأجريت كذلك الدراسات عن ظهور بعض المهارات النادرة في الأفراد الذين يعانون من قصور عقلي مثل الأطفال الحكماء البلهاء الذين تتراوح نسب ذكائهم بين 40-70 (Treffert, 1989)، ويظهر هؤلاء الحكماء البلهاء جزءاً من القدرات المدهشة في العمليات الحسابية، والرسم، والشطرنج، والموسيقا، والميكانيكا، والذاكرة الفوتوغرافية، والإدراك فوق الحواس (Treffert, 1989). كما أجريت بعض الدراسات عن أطفال زملة وليامز الذين يظهرون قصوراً عقلياً كبيراً في كثير من الجوانب، ويظهرون درجات ذكاء تتراوح بين 40-100 (Levitin & Bellugi, 1998)، ولكن مع ذلك لهم موهبة موسيقية خارقة فضلاً عن تعابير وجهية مذهلة (Morelock & Feldman, 2000).

أما في العالم العربي فقد نشرت بعض الدراسات البيوغرافية عن الموهوبين التربويين العرب (الخليفة، 1999)، والعبقريات العرب (الخليفة، 1997)، والموهوبين السودانيين (Khaleefa,1999)، ومالك بدري رائد عملية توطين علم النفس في العالم العربي (الخليفة، 2003)، بينما أجريت دراسة عربية عن حالة الطفل البحريني «آية»، والذي تم تشخيصه في عمر 7 سنوات على أنه طفل متخلف بينما تمت عملية إعادة تشخيصه في عمر 14 سنة على أنه طفل موهوب، بل متعدد المواهب (الخليفة، 2000)، ودراسة عربية أخرى عن الموهبة الموسيقية عن الأطفال، والتي تضمنت بيانات عن الأطفال الخوارق موسيقياً (الخليفة، 2002). تحاول الدراسة الحالية سد الفجوة في هذا الجانب من خلال دراسة الطفل السوداني الخارق «سمبر». وسمبر ليس هو الاسم الحقيقي للطفل، إنما هو رمز لمشروع الكشف عن الموهوبين في السودان.

البطاقة الشخصية:

كانت صيحة ميلاد الطفل «سمبر»، يوم الأحد 25 يونيو 1995 بالإمارات العربية المتحدة، وهو الطفل الأول في الأسرة. وكان وزنه عند ولادته 2600 جرام، وبدأ الجلوس في عمر 6 أشهر، والحبو في عمر 10 أشهر، والكلام في عمر 12 شهراً، وظهرت الأسنان في عمر 11 شهراً، وبدأ المشي في عمر 15 شهراً، وبدأ تكوين جمل قصيرة صحيحة في عمر 18 شهراً. ولد شقيقه الأصغر وكان في عمر 28 شهراً، ويصر على حمله ومداعبته، وقلما كان يحاول الاعتداء عليه، تم تدريبه على الحروف في عمر سنتين، وكان يميز بينها تمييزاً صحيحاً، ويلاحظ أنه كان يتعمد أن يخطئ كأن يقول، مثلاً، خ (غنماية) بدلاً من خ (خروف)، أو ج (شجرة)، ثم يعقبها بضحكة.

(*) تم تمويل هذه الدراسة من قبل وزارة العلوم والتقانة في السودان.

وفي الفترة من 2-4 سنوات، كانت تقرأ له أمه قصصاً قبل النوم، وكان يطالب بالمزيد من هذه القصص على أن تكون 3-4 قصص في الليلة الواحدة. وفي عمر 3 سنوات، كان يميز بين صور الأطفال وأسمائهم إذا كانت الأم تخفي الاسم، وتشير إلى الصورة التي في مجلة ما، فيذكر الاسم جيداً أو العكس؛ إذ يذكر الاسم، ويشير للصورة. وفي عمر 3 سنوات، كان يستطيع أن يتذكر 12 صورة من الجنسين. كما يستطيع كذلك في العمر نفسه أن يتذكر الاسم الثلاثي والرباعي لحوالي 40 من أفراد الأسرة.

وفي عمر 3 سنوات كان يجيد فن الاستماع للقصص القصيرة المختارة المسجلة على أشرطة كاسيت قبل النوم أو في أثناء النهار، إذ كان يركز مع أحداثها بانتباه شديد. وفي هذا العمر، كانت تحكى له القصة، وكان يحكيها بلغتها مع بعض التغيرات الطفيفة. وينطبق الشيء نفسه على القصص المسموعة من الأبوين. وتدل هذه القدرة على قوة الحافظة (الذاكرة)، فضلاً عن صفة التركيز، وكانت تتم عملية صقل هذه القدرات بالألعاب الهادفة.

وفي عمر 4 سنوات، كان يمثل أنه يقرأ القصة من الكتاب، وعندها كانت تتم عملية تشجيعه على ذلك من خلال عبارات الإطراء، كما تتم عملية مناقشته حول ذلك والقيام معه ببعض الأدوار، ومن تلك القصص التي كان يحبها استريتش طويل الرقبة، وهي أول قصة تقرأ له في حياته، والأسد الصغير، والدجاجة الصغيرة، فضلاً عن مجموعة قصص الغدير الفضي للأطفال. وفي عمر 4 سنوات كذلك، تعلق الطفل بصورة خاصة بمجلة ماجد ولا يزال. فكانت تأتي له الأسرة بالمجلة، وتقرأ له منها القصص المصورة. ولفتت هذه المجلة القيمة نظره إلى عالم الفضاء والفلك والعلماء، وأثرته بالمعلومات القيمة، ولا تزال، وله منها أعداد كبيرة.

بوسعنا التساؤل هل لهذه القصص القصيرة التي كانت تقرأ لهذا الطفل في هذه المرحلة النمائية الباكرة من العمر دور لاحق في تنمية موهبته وظهور نبوغه؟ ربما تذكر عملية اهتمام هذين الأبوين بطفلهما بالمجهودات العظيمة التي قام بها عالم النفس النمائي والبنائي، ذائع الصيت، جان بياجيه في متابعته الذكية لعملية نمو أطفاله في سويسرا. ومن خلال ملاحظاته المسجلة بعناية صاغ واحدة من أكثر نظريات علم النفس ثباتاً تتعلق بالنمو العقلي للطفل. ربما تساعدنا نظريات جان بياجيه في تقديم بعض الملاحظات على نمو الطفل «سمبر» العقلي.

علامات النبوغ المبكر في مهارة القراءة:

في عمر 3 سنوات و3 أشهر، تم تسجيل الطفل في روضة إنجليزية بدولة الإمارات العربية، وقضى بها شهراً ونصف الشهر، وتم سحبه منها بسبب كثرة الواجبات، خاصة أن عضلات يده لم يكتمل نموها بالصورة الكافية التي تمكنه من إمساك القلم. ودخل هذه الروضة الإنجليزية بسبب أن الروضة العربية كانت تفيض بالمشكلات بين الأطفال (لعب العيال)، بينما نشأ الطفل مسالماً مسامحاً يتنازل حتى عن حقه بخلاف أخيه الأصغر. وكان يؤثر الأطفال الصغار بلعبه الخاصة عند الزيارة للمنزل. أما في الأماكن العامة كالحدائق مثلاً، فكان في بعض الأحيان ينفرد بنفسه، ويستغرق في لعبة ما وحده بعيداً عن بقية الأطفال، ولكن يلاحظ بأنه في كثير من الأحيان كان يفضل الجلوس مع من هم أكبر سناً منه، فضلاً عن مشاركتهم الحديث. ويمكن القول بكلمات أخرى، يود الطفل أن يكون له مجاله الخاص في بعض الأوقات، وذلك لفرادته، وربما لإشباع تأملاته، ولكن في الوقت ذاته يحب أن يكون مع الآخرين، وربما لاختبار تأملاته على ضوء الواقع. ويصعب على بعض الأطفال الموهوبين في صغرهم إحداث هذا النوع من التوازن بين ما هو فردي وما هو اجتماعي.

وفي عمر 5 سنوات، التحق الطفل بالتمهيدي في الروضة، وذلك في إحدى المدارس الهندية التي تدرس أطفالها باللغة الإنجليزية في دولة الإمارات. ويلاحظ أنه خلال شهر واحد أتقن جميع الحروف الإنجليزية، وكذلك الأرقام من 1-100 قراءة وكتابة، وتفوق على زملائه مع العلم بأنه درس الروضة الصغيرة والكبيرة في عام دراسي واحد، بينما هي تدرس عادة في عامين دراسيين، كما تم تكريمه في نهاية العام الدراسي. وخلال هذه الفترة برز دور الأسرة في تعليمه اللغة العربية، وتزويده بالثقافة الإسلامية التي تناسب سنه، وخاصة أنه يدرس في روضة إنجليزية. وتم توظيف أشرطة الفيديو والأقراص المدمجة لمساعدته على التعليم بصورة أفضل. ويمكن القول إنه وكعادة الأطفال النوابغ استجاب الطفل بصورة إيجابية بل إتقان مهارة تعلم القراءة وإلى حد ما الكتابة في عمر مبكر.

وفي عمر 6 سنوات، دخل مدرسة خاصة، وهي السن التي يدخل بها عامة الأطفال العاديين المدرسة. ولكن إذا كان هناك اكتشاف مبكر لموهبته بصورة دقيقة مع سماح التشريعات بعملية التسريع فربما كان من المناسب دخول الطفل المدرسة في سن الخامسة، وليس السادسة من العمر. ويلاحظ في المدرسة، وفقاً لإفادة الوالدين، أنه خلق مجموعة من الأصدقاء المتميزين، والذين كان يسعد بمنافسته لهم، وكثيراً ما كان يحكي لأسرته عن هؤلاء الأصدقاء. كما يلاحظ أنه كان يتحدث إلى أصدقائه عن عالم الفضاء والنجوم والكواكب، لذلك أعجب به أصدقاؤه وأحبوه.

التسريع الدراسي:

بعد رجوع الأسرة من دولة الإمارات للسودان، جلس الطفل في مدينة الأبيض لامتحان قدرات بمدرسة الدوحة واجتازه بتفوق، ومن ثم انتقل مباشرة إلى الصف الثالث الأساس، وذلك من غير أن يدرس الصف الثاني، وهذا ما يسمى بلغة التسريع القفز الدراسي. ولم يكن مدير المدرسة أو معلمة الصف موافقين على عملية تسريعه إلا بعد إحرازه للدرجات الكاملة في امتحان القدرات الذي عقد خاصة بالنسبة له. ودرس الطفل الصف الرابع بمؤسسة الخرطوم للتعليم الخاص، ونتيجة لتميزه الدراسي تم ترفيعه للمرة الثانية للصف السادس متجاوزاً بذلك الصف الخامس. والجدير بالذكر هنا هو دراسة الطفل للمواد الأساسية للصف الخامس، وهي الرياضيات واللغة الإنجليزية والعربية خلال شهر واحد، وجلس بعدها للامتحان وأحرز فيه أداء متميزاً.

وحتى هذه اللحظة، تم تسريع الطفل مرتين في مرحلة الأساس التي لم يكملها بعد. وربما يستطيع، حسب قدراته العقلية أو الدراسية، إذ كان ترتيبه الأول في مصفوفة الكشف عن الموهوبين من بين 1040 طفلا، (عطا الله، 2004)، فضلاً عن ذلك كان ترتيبه الأول من ناحية دراسية تحصيلية على مستوى المدرسة، بأنه قادر على التسريع وقفز الصف للمرة الثالثة. ويتوقع بذلك أنه سوف يكمل مرحلة الأساس في عمر 11 سنة، بينما يكملها الأطفال العاديون في متوسط عمر 14 سنة أو 15 سنة.

ربما يكون من المناسب في هذا الجزء من العرض تقديم بعض الملاحظات والتفسيرات لحالة التسريع الدراسي للطفل في مرحلة الأساس. وربما نركز بعض الشيء على الهواجس أو المخاوف من التسريع (جروان، 1998، 2002) من خلال عملية استجابة الطفل. يمكن القول إن الطفل قد حقق شروط التسارع كما هي في بعض التشريعات العالمية (Brody & Benbow,1987; Gross,1992, 1993; Pollins,1983).

أولاً: امتاز الطفل بمعامل ذكاء كلي عال بلغ 137 درجة في الطبعة الثالثة لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال. ويحتاج التسريع في العالم لنسبة ذكاء كلية مقدارها 130، وعلى أقل تقدير 120 درجة، وبذلك كانت درجة الطفل أعلى بـ 7 درجات أو17 درجة من المتوسط العالمي. كما نال 148 درجة في الذكاء اللفظي بزيادة 28 درجة عن المتوسط العام، وذلك إذا وضع الذكاء اللفظي في الحسبان (الخليفة، 2004).

ثانياً: أظهر السجل الدراسي للطفل تقدماً ملحوظاً على أقرانه خلال السنوات السابقة، وأظهر تفوقه الدراسي في المواد المختلفة وليس هناك ضعف يذكر.

ثالثاً: ليست هناك فجوات بين المهارات المدرسية، خاصة القراءة والكتابة، وبين قدراته في الفصل الذي قفز إليه.

رابعاً: هناك تكيف اجتماعي ملحوظ بالنسبة للطفل مع أقرانه.

خامساً: هناك دعم هائل مقدم من الأسرة تجاه عملية تسريع الطفل، ويشير ذلك لوعي الأسرة ورعايتها لطفلها وهذا النوع من الوعي والحماس تفتقده عادة الكثير من الأسر السودانية.

سادساً: بعد تكيف اجتماعي ملموس للطفل في الصف الرابع تم تسريعه ثانية للصف السادس.

كارثة عدم التسريع في السودان:

بوسعنا الآن تسجيل بعض الملاحظات الأخرى لتسريع (جروان، 1998، 2002) الطفل «سمبر»، وربما يمكن القول إن عملية القفز الدراسي أدت لتحسين مستوى الدافعية له، فضلاً عن أداء مدرسي تجويدي يتمثل في المحافظة على التقدم الدراسي المتواصل والمنظم دون اعتبار لعامل

السن. وربما يمكن التعبير بصورة أخرى بأنه لم يخسر الحافز للمدرسة من جراء عملية التسريع وعوض بسرعة المهارات التي لم يدرسها وحافظ على مرتبة لائقة وسط أقرانه. كما لم تحدث له مشكلات في التكيف الاجتماعي، كما لا يعاني من حرمان اجتماعي في المدرسة، بل له مجموعة من العلاقات الحميمة. ويمكن القول كذلك إنه ربما لا يتحمل بقية الأطفال العاديين في المدرسة تجربة التسريع التي خضع لها الطفل، والتي استجاب لها بصورة متناغمة مع قدراته العقلية والاجتماعية. ونؤكد في هذه الحالة على أهمية وضع تشريعات عاجلة في وزارة التربية والتعليم بخصوص كيفية تسريع التلاميذ الموهوبين في السودان (الخليفة، 2005).

ربما يعتبر التسريع الدراسي وقفز الصفوف «جنحة» في النظام التربوي في السودان (عمر، 2005) كما تغيب أي تشريعات تنص على أهمية التسريع، أو حتى الإشارة إليه سواء تعلق بالدخول المبكر في الروضة و المدرسة من جانب، أو قفز الصفوف الدراسية من جانب آخر (جروان، 1998، 2002). وعلى مستوى العالم، يعتبر التسريع الدراسي أحد الألواح الثلاثة لرعاية الأطفال الموهوبين بالإضافة للإثراء المنهجي، والإرشاد النفسي (Proctor, et al., 1986; Stanley, 1989, Van Tassel, 1981; 1986).

وبوسعنا القول إن عدم تسريع هذا الطفل ربما يشكل كارثة بالنسبة له؛ إذ لا تستفيد هذه النوعية من الأطفال متعددي المواهب والذكاءات من عملية البقاء في الصفوف العادية، وربما بسبب الملل والسأم والضجر الذي ينتابهم أو يصيبهم. وقد يكون أحياناً مللاً قاتلاً نهايته التسرب أو الهروب من المدرسة كما يحدث لبعض الأطفال الموهوبين. وتصعب على مجموعة مقدرة من الأطفال الموهوبين عملية التحمل والصبر مع بطء الأقران في الصفوف العادية. فالطفل الذي تبلغ درجة ذكائه 140 وأكثر يضيع نصف وقته في الصف الدراسي العادي (Hollingworth,1942)، وربما يمكن ربط هذه النقطة كذلك بالإحباطات التي كانت يمكن أن تواجه أسرة الطفل في حالة عدم تسريعه الدراسي مقارنة مع مستواه العقلي والدراسي المتقدم (الخليفة، 2005).

كما يمكن تسجيل ملاحظة أخرى تتمثل في محافظة الطفل على طاقة كبيرة، واستثارة عقلية، ومستوى عال من الثقة بالنفس (ديفز وريم، 2001). وربما تشكل عملية القفز تحدياً بالنسبة له بأن يحقق النجاح عبر درجات السلم التعليمي تناسباً مع قدراته. وبذلك يمكن القول إن تجربة التسريع كانت إجراءً تربوياً عادلاً يتوازن مع قدراته واستعداداته العقلية. كما لم تحتج عملية التسريع في حالته لأستاذ خاص، أو منسق برنامج للأطفال المسرعين. فضلاً عن ذلك تقلل عملية التسريع من كلفة تعليمه (جروان، 1998، 2002)، ولأن الطفل يدرس في مدرسة خاصة تبلغ رسومها الدراسية في العام حوالي 600 دولار أمريكي، وخلال 8 سنوات من المفترض أن تدفع أسرته حوالي 4800 دولار أمريكي. ونتيجة لتسارعه مرتين في مرحلة الأساس، يتوقع أن يوفر ما لايقل عن 1200 دولار أمريكي للأسرة. وتنطبق نفس المعادلة مع الأطفال المسرعين في المدارس الحكومية مع مراعاة اختلاف كلفة التعليم في المرحلة بين ما هو حكومي ما هو خاص.

وبلغة ظنية، ربما يمكن القول إنه إذا حافظ الطفل على عملية اتقاد ذهنه، وتفجير طاقته، وتقدمه الدراسي يستطيع أن يختصر المرحلة الثانوية في سنتين، وبذلك من المتوقع أن يدخل الجامعة في عمر 15 سنة، وهو العمر الذي يدخل به غالبية الأطفال النوابغ، أو متعددي المواهب، أو متعددي الذكاء الجامعة في بقية دول العالم.

ويمكن القول إن الطفل أيمن ولد في تاريخ مناسب، في تاريخ بدأ به الإقرار بأهمية اكتشاف ورعاية الأطفال الموهوبين في السودان (عطا الله، 2004) والاعتراف بمواهبهم وذكاءاتهم المتعددة. ويمكن القول بكلمات أخرى، لقد تم اكتشاف الطفل «سمبر» في مرحلة مناسبة من تطور علم النفس في السودان تتعلق بتطبيق أول تجربة للكشف عن الأطفال الموهوبين في مشروع طائر السمبر (الخليفة، 2004). جاء الطفل «سمبر» من ترسانة الموهوبين التي يبشر فيها طائر السمبر الشهير بقدوم فصل الخريف استعداداً لموسم الزراعة. وقد يكون الطفل بشارة لسودان الغد، والذي تصفه الحركة الشعبية بالسودان الجديد.

الذكاءات المتعددة: الهوس الرياضي وتبصرات الفضاء:

وجد هاوراد جادنر أن هناك عدة ذكاءات للفرد الواحد من بينها الذكاء اللفظي اللغوي، والمنطقي الرياضي، والمكاني الحركي، والحركي الجسمي، والصوتي الإيقاعي، والاجتماعي، وبين

الشخصي والطبيعي والوجودي (Gardner,1983,1999). أظهرت نتائج المقابلات مع الوالدين والتقارير المدرسية مشاركة الطفل في بعض الأنشطة المدرسية مثل الإذاعة المدرسية، والمهرجانات، خاصة مهرجان اللغة الإنجليزية (ذكاء لغوي). وقد شارك بالفعل في مسابقتين في حفظ وترتيل القرآن الكريم فأحرز جائزتين كانت الأولى على مستوى المدرسة بينما الثانية على مستوى المنطقة، وذلك في عام 2001، وقد أحرز المركزين الثاني والثالث على التوالي. مع ملاحظة أنه كان أصغر المتسابقين عمراً. كما استطاع خلال العام الدراسي 2004-2005 وهو بالصف السادس أن يدرس علم العروض.

ومن ناحية دراسية، أحرز المركز الأول على مستوى أحد عشر صفاً في السنة الأولى. فضلاً عن ذلك كتب قصيدة منثورة «أليست الأقصى أرض الإسراء والمعراج» (ذكاء لغوي)، مع رسوم توضيحية وعلى الرغم من قلة فنيتها كانت معبرة. كما قدم في نهاية العام الأول وعمره أقل من 7 سنوات قصيدته الأولى بعنوان «معلمتي» وهذا نصها:

يامعلمتي العزيزة

دروسك لذيذة

وصفوفك عزيزة

وأنا بدراستي معك فرح

فأنت أفضل معلمة شرح

وصدري بدراستي معك منشرح

كتبت بفضلك أجمل سطور

ووصلت بي إلى أقصى سرور

أعطيتني أحلى أمور

وجعلتني في كل سرور

فأنت معلمة الأصول

أنت معلمة الأصول

وغير الاهتمام بالشعر، للطفل «ذكاء رياضي أو حركي» لدرجة الهوس يتعلق بكرة القدم والكاراتيه ممارسة ومعرفة. فقد حصل على الحزام الأصفر في الكاراتيه. كما يحب التنظير كثيراً في كرة القدم فضلاً عن ذلك له آراء حاسمة في عملية التدريب. وإذا استمعت له يتحدث عن كرة القدم كأنه خبير في كرة القدم. كما يعرف كثيراً عن كرة القدم المحلية والإقليمية والعالمية، بالإضافة لذلك يعرف أسعار اللاعبين وجنسياتهم وتواريخ تسجيلهم فضلاً عن معلومات بيوغرافية عنهم. وفي مباراة مدريد ولشبونة الأخيرة 2005 تمرد على الذهاب للخلوة في أم ضوابان في الفترة المسائية وذلك لمشاهدة المباراة.

وكعادة الأطفال النوابغ، يكون لهم هوس غير عادي للأشياء المحببة والمفضلة بالنسبة لهم. فالنوابغ، مثلاً، في عزف وتأليف الموسيقا، أو في الرسم، أو في الشطرنج، أو في الرياضيات، أو في الرياضة، أو في الميكانيكا يقضون وقتاً طويلاً في عملية التدريب والممارسة والمثابرة والمشاهدة ربما لدرجة الوسواس (Heller et al., 2001). ولكن يبدو أن أكثر الوساوس المذهلة في حياة الطفل هو الوسواس، المتعلق بعالم الفضاء (ذكاء طبيعي). ويبدو أن عالم الفضاء في مجلة ماجد قد استهوى خيال الطفل من مرحلة باكرة من عمره، وكذلك في عمر 6 سنوات تعززت اهتماماته أكثر بعالم الفضاء من خلال درس في كتاب اللغة العربية بالصف الأول عنوانه «رائد الفضاء». كما لا يفوتنا أن نتذكر هنا تسجيل الأستاذ حسن نجيلة (1971) لاهتمام جد الطفل بعلم الفلك، ومعرفته ما يسمى بالمنازل.

ماذا بين الطفل سمبر والطفل نيوتن والطفل أنشتاين؟

يمتاز «سمبر» كذلك بما يسمى في نظرية جاردنر (1983، 1999) «الذكاء المنطقي الرياضي»، ففي عمر 8 سنوات و9 شهور، قدم «محاضرة» عن «المجموعة الشمسية» لمجموعة من 55 من

الأطفال الموهوبين، وذلك في مخيمهم الصيفي الإثرائي بالعمارات شارع 1 في يوم 25 أبريل 2004 (الخليفة، 2004). كما قدم في عمر 9 سنوات و4 شهور، بحثاً بعنوان «النجوم». وسوف نستعرض أولاً البحث العلمي الذي يمكن وصفه بالرصين مقارنة مع عمره، ومن بعد نلقي الضوء على المحاضرة المدهشة. وبوسعنا من خلال هاتين المساهمتين محاولة رسم ملاح أو خيال يجمع ما بين الطفل سمبر، والطفل نيوتن، والطفل أنشتاين.

بالنسبة للبحث العلمي، كتب الطفل الباحث في صفحته الأولى اسم الباحث، وكتقاليد البحث الكلاسيكية المتعارف عليها في كتب التراث العربي الإسلامي كتب في خاتمة البحث «تم البحث بحمد الله وتوفيقه في الثاني من رمضان المبارك سنة 1425 هـ، الموافق السادس والعشرين من أكتوبر سنة 2004 م». وما بين الصفحة الأولى والنهاية، تكمن قدرة الطفل الأخاذة في عملية البحث والتقصي. ففي مقدمة البحث، بعد أن بسمل وصلّى، وذاكراً أما بعد؛ كتب «النجوم عالم رائع يدعو إلى التأمل، وسأوضح ذلك في ثنايا البحث بعون الله وتوفيقه». يبدو أني سوف أستعير وأعيد صياغة كلمات الطفل الباحث لتوضيح جوانب الروعة، كما أوجه الدعوة للقارئ بأن يتأمل في بحث «النجوم».

اشتمل فهرست البحث على 20 موضوعاً شملت جوانب مختلفة عن النجوم. كانت بداية البحث بمقدمة كما هو متعارف عليه في سائر الكتب وأعقبه بإهداء، ومن بين من أهدي لهم البحث نقتبس الآتي «أهدي هذا الجهد المتواضع لأبي أستاذي، ولأمي مدرستي الأولى، ولأخي الحبيب...». وبذلك لم يدع الباحث ويصف بحثه بأكثر من أنه مجرد «جهد متواضع» وإنما هو تواضع العلماء الصغار سناً والكبار عقلاً. بينما غطت الموضوعات الرئيسة النجوم في القرآن الكريم، دراسة الإنسان للنجوم، النجوم عند العرب قبل الإسلام، تسميات النجوم وفوائدها، صور النجوم وأشكالها، أصل الكون، المجرة، تعريف المجرة، الفرق بين الكواكب والنجوم، هل الشمس نجم، ولادة النجم، كيف يتقدم العمر بالنجم، حكاية النجوم وألوانها، كيف تموت النجوم، متى ستموت الشمس، أنواع النجوم وأعمارها، الكوكبات والنجوم، ملاحق بحث النجوم، وأخيراً فهرست البحث.

ويمكننا أن نستعرض بعض الجوانب التي عالجها الطفل الباحث، وتتضمن تحديده لورود ذكر النجوم في القرآن الكريم أكثر من 13 مرة، كما أشار للآيات ذات الصلة، كما حدد عملية الاستفادة من النجوم في مساعدة صانعي الخرائط والطيارين والبحارة في تحديد الاتجاهات والمواقع، فضلاً عن تنظيم الأعمال الزراعية مثل تحديد مواعيد تلقيح النباتات، وزيادة كميات الري. كما أرخ الطفل الباحث لدراسة النجوم في التاريخ العلمي قبل أكثر من 3000 سنة قبل الميلاد، وحتى عام 1974، عندما توصل الفلكيون إلى معلومات عن انفجارات النجوم، وذلك عن طريق رصدهم لأقرب نجم من النجوم فوق المستعمرة وأشدها لمعاناً على مدى 400 سنة.

كما تعقب الطفل الباحث في تاريخ الفلك إصدار أول أطلس فلكي يرجع للعالم بطليموس في القرن الثاني الميلادي، والمشهور بـ «المجسطي» والذي احتوى على 1028 نجماً. وفي القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي، أعاد العالم الفلكي المسلم أبو الحسن الصوفي رصد نجوم بطليموس واستدرك على بطليموس الكثير من الأخطاء، وأودع تصويباته في كتابه الشهير «صور الكواكب الثمانية والأربعين». ومن بين علماء الفلك العرب الذين اقتبسهم البيروني، والخوارزمي، وأبو الفداء، وابن حيان، وابن سينا، وابن بطوطة، وابن قرة.

وعالج الطفل الباحث موضوع أصل الكون من خلال الاعتقاد السائد لمعظم علماء الفلك المعاصرين بأن الكون قد بدأ بالتشكل بانفجار عظيم هائل يعرف بالانفجار الكبير، حيث انفجرت نقطة صغيرة جداً من الطاقة الهائلة التي لا تصدق، وبعثرت غازات حارة في كل اتجاه، ثم تشكلت من هذه المواد المجرات والنجوم والكواكب. ويلاحظ هنا أن الطفل الباحث لم يتشكك في نظرية الانفجار العظيم مع مراجعته لتراث النجوم كما ورد في القرآن الكريم، فضلاً عن مساهمة علماء التراث العرب والمسلمين الهائلة في مجال الفلك.

ومن بين الملاحظات الجديرة بالانتباه في البحث، تمييز الباحث للفرق بين الكواكب والنجوم من خلال تأمل السماء في ليلة صافية، فضلاً عن التمييز بين الكوكبات والنجوم، مثل كوكبة الجبار، وكوكبة ممسك الأعنة، والدب الأكبر، والدب الأصغر، فضلاً عن كوكبات النجوم الأقل شهرة، مثلاً، كوكبة الأسد، والسرطان، برج العذراء، الغراب، التاج، كلاب الصيد، ذات الشعور، المثلث الصيفي، التنين، العواء، الإكليل الشمالي، الجاثي، السلياق، والعرقب، الحية والحواء، الميزان،

الرامي، العقاب، الدجاجة، الدلفين، السهم، فيغاوس، وذات الكرسي، الفرس الأعظم، والمرأة المسلسلة، والجدي، والدلو، والحوت، الثور، وبرشاوش. وكعادة الأطفال النوابغ، كثيراً ما يتساءل الباحث بصورة متكررة في بحثه الرصين هل الشمس نجم؟ كيف يتقدم العمر بالنجم؟ وكيف تموت النجوم؟ ومتى ستموت الشمس؟

ولم يكتف الطفل الباحث بمجرد التساؤل، وإنما يبحث ويدقق في المراجع ليجد إجابة علمية لهذه التساؤلات غير المتناهية. وكثيراً ما يستخدم لغة ظنية من غير توكيد فتكثر كلمات مثل «هناك احتمال»، و«تقريباً»، و«الله أعلم». وعند تساؤله، مثلاً، متى تموت الشمس؟ ذكر أن الشمس الآن في منتصف العمر «تقريباً»، وهناك «احتمال» أن يستمر ضوءها خمس مليارت قادمة من السنين. بعد ذلك ستتحول إلى عملاق أحمر، وتتضخم حتى تتعدى حدود دوران الأرض فتحطمها كلها بالإضافة إلى عطارد والزهرة، ثم تصبح قزماً أبيض ثم تموت، فهل ستنتهي الحياة على الأرض بهذه الطريقة؟ وفقاً للطفل الباحث «الله أعلم».

كما وضع الطفل الباحث في نهاية بحثه ملاحق، من بينها الملحق الأول عن «الأسماء العربية لأهم كوكبات السماء وبروجها»، والملحق الثاني عن «حقائق مهمة ومختصرة عن النجوم»، وتضمن الملحق الثالث «مصطلحات النجوم»، والملحق الرابع عن «حركة الشمس بين البروج»، واحتوى الملحق الخامس على «جدول الوقت»، بينما وضع الباحث صوراً للانفجار الكبير، وصورة لبداية تشكل المجرات، وصورة لبداية تطور النجوم مع المجرات، وصورة تشكل المجموعة الشمسية، فضلاً عن صورة لبداية الحياة على الأرض. وأخيراً ثبت الطفل الباحث قائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في بحثه القيم عن النجوم.

عندما قرأت هذا البحث الرائع دار في ذهني سؤال: هل قام فعلاً هذا الباحث الصغير بكتابة المخطوطة التي قرأتها عن النجوم، والتي تحتوي على 45 صفحة مطبوعة على الكمبيوتر، أم أن هناك مساعدة ومساهمة من جهة أخرى؟ وفقاً لذلك، سألت والد الطفل عن ذلك فذكر أن مساهمته في البحث المقدم تتمثل في تعليمه طريقة جمع المعلومات، والقيام بطباعة وتنسيق المعلومات، بينما قام الطفل نفسه بالبحث عن المعلومات من مظانها الأصلية فضلاً عن عملية تصنيفها وتبويبها. وبصفتي مشرفاً على بحوث طلاب البكالريوس والماجستير والدكتوراة في علم النفس ربما يمكنني القول، من غير تحفظ: إن البحث الذي قدمه الطفل عن «النجوم» ربما يشابه بصورة عامة الخطوط العريضة للبحث الذي يقدمه طالب البكالريوس، على الأقل في علم النفس، بجامعة الخرطوم.

أما في المحاضرة التي قدمها الطفل في المخيم الصيفي الإثرائي في صيف عام 2004، فقدم فيها معلومات دسمة عن عالم الكواكب، فضلاً عن ذلك رصد بدقة إحصائيات المسافة والحجوم لهذه الكواكب. وعموماً كانت معلوماته المقدمة عن الكواكب في غاية التسلسل والتنظيم. كما لم يفته أن يتحدث عن علاقة الأطباق الطائرة بالاضطرابات النفسية. ويلاحظ إنه في أثناء المحاضرة كثيراً ما كان يفكر، بل يدقق قبل بداية عرض أفكاره. ربما يمكن القول إن الطفل من ذوي الأسلوب التأملي في التفكير، خلافاً للأطفال من ذوي الأسلوب الاندفاعي. وإذا فاته شيء كان يستدرك قائلاً «نسيت أن أذكر أن حلقات زحل»، وإذا حاول أن يربط بين فكرة وأخرى في المحاضرة يقول، مثلاً: «مع ملاحظة ما ذكرناه سابقاً». كما كان يتحدث بلغة ظنية من غير تأكيد مثلاً، قال: «قلت، إن المريخ فيه مياه متجمدة ربما وجد الأكسجين ولكنه متجمد»، وقلت إن حجم المعلومات قليل عن بعض الكواكب، مثلاً، بلوتو، وذلك جدد اكتشاف الأمل».

ومن ناحية فنية، كان يشير للمادة المعروضة على جهاز الوسائط المتعددة بيده، وكثيراً ما كان يجذب الانتباه للمعلومات المقدمة من قبله. وكانت هناك ابتسامه لا تفارقة طيلة زمن تقديم المحاضرة. وقليلاً ما يحافظ حتى الكبار على هذه الابتسامة في محاضراتهم. وربما تشبه تلك المحاضرة المقدمة لحظة الكمال في حل مسألة حسابية معقدة كمسألة ابن الهيثم، أو لحظة طفل خارق يلعب الشطرنج، أو طفل مذهل أكمل لوحة فنية، أو طفل أخاذ كتب معلقة من كل البحور، أو رعشة عاشق ولهان، أو طفل معجزة يرتل في آيات سورة الرحمن. يبدو أن الخيال والعقل والبراءة كانت تتفاعل عنده بصورة منسجمة أشبه بسوناته موسيقية. وفي نهاية هذه المحاضرة المذهلة، سأل المحاضر الحاضرين: أين الأسئلة؟ وكانت إجاباته لجميع الأسئلة المفخخة عن الكون مصاغة بعناية فائقة وباختصار. ويبدو أن روعة الطفل تتجلى أكثر عندما يتحدث، وتتوهج عندما يجاوب عن موضوعه المفضل عن «المجموعة الشمسية».

كما قدم الطفل قبل سنه العاشرة محاضرة أخرى عن «النجوم»، وهي عبارة عن بحث قام الطفل بإجرائه، وقدمه في الورشة التدريبية لمعلمي مدارس الموهوبين، والتي نظمتها وزارة التربية والتعليم بولاية الخرطوم. وقدم الطفل هذه المحاضرة في يوم 23 مايو 2005 وحضرها حوالي 100 من المعلمين والإداريين فضلاً عن وزير العلوم والثقافة في السودان، والدكتور فتحي جروان رئيس المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين، والأستاذة مريم حسن عمر رئيس اللجنة الفنية لمدارس الموهوبين. وقد لفتت هذه المحاضرة انتباه المعلمين لهذه العينة من الأطفال الخوارق.

لقد استمعت لهاتين المحاضرتين بإصغاء جيد، وفي أثناء متابعتي للمحاضرتين جال في ذهني نوعية الأحاديث والبحوث المقدمة من نيوتن وأنشتاين في صغرهم ، والتي قد توضح ملامح لنوعية مساراتهم اللاحقة في الكبر. فياترى ماذا قدم الطفل إسحاق نيوتن في طفولته المبكرة لأطفال مدينته؟ فمنذ حوالي 300 عام، أوضحت مبادئ نيوتن أن ما يلاحظ من حركات الكواكب حول الشمس يمكن تفسيره بافتراض أن كل كوكب ينجذب نحو الشمس بقوة تتناسب طردياً مع كتلته وعكسياً مع مربع بعده عن الشمس. وقد أثبتت ميكانيكا الأجرام السماوية هذه نجاحها بدرجة كبيرة (مري، 1996). وقد نتساءل هنا ماذا يجمع بين الطفل سمبر والطفل نيوتن؟

كما تجدد محاضرة «سمبر» كذلك التساؤل عن المساهمات المقدمة من قبل الطفل أنشتاين في صغره، والذي انصب اهتمامه في كبره أولاً على سرعة الضوء، واهتمامه الثاني عن إلقاء فكرة نيوتن عن مجال الجاذبية بتبني وجهة النظر النسبية. ومن بين النتائج الغريبة لانشتاين الموقف المعروف لرائد الفضاء الذي يعود بعد رحلة طويلة ليجد أن الوقت الذي انقضى معه أقل من الوقت الذي انقضى مع غيره من البشر الذين لم يبرحوا وطنهم. بذلك خطا آنشتاين الخطوة الأولى والمبدعة نحو التساؤل عن مفهوم الزمن. ومن المعقول أن نصف مثل هذا العمل الخلاق في الرياضيات بأنه عمل عبقري (مري، 1996). الجدير بالذكر أنه لم تتم الالتفاته لنبوغ أنشتاين إلا في عمر 12 سنة، وذلك من خلال قراءته كتباً جادة في مجال العلوم الفيزيائية، فضلاً عن نبوغه في الرياضيات. بينما تأكد نبوغ الطفل سمبر في عمر 8 سنوات وقرأ كتابين، على الأقل، في علم الفلك في هذه السن المبكرة. ونكرر التساؤل ماذا يجمع بين الطفل سمبر والطفل أنشتاين؟

كيف يمكن تصنيف حالة الطفل في علم نفس الموهبة؟:

يمكن القول بأمان إن الطفل سمبر طفل متعدد المواهب (Multiple gifts)، وبلغة أفضل هو طفل متعدد الذكاءات (Multiple intelligences). فبالنسبة للطفل المتعدد المواهب فإنه يمتلك قدرات عقلية فوق المتوسط، وقدرات إبداعية رفيعة، فضلاً عن دافعية عالية والتزام صارم بالمهمة (Renzulli, 1979; 1986). ولكن ربما يمكن القول إن الطفل عالي الذكاء (تفكير لام)، ولكن بدرجة أقل في الإبداع (تفكير منطلق أو متشعب)، فالطفل سمبر يمتلك هذه الحلقات الثلاث والتي تتزاوج وتتفاعل بصورة معقدة ومن ثم تنعكس في ذكاء أو موهبة لغوية (القرآن، والشعر، الإذاعة، القراءة)، وموهبة منطقية رياضية (الرياضيات، الاستدلال)، وموهبة طبيعية (الفضاء، النجوم، المجموعة الشمسية)، وموهبة رياضية (كرة القدم، الكاراتيه)، وذاكرة استثنائية (الحفظ، التخزين، الاسترجاع)، وربما يحتاج بصورة خاصة لتعزيز في مجال الإبداع، والتفكير المنطلق والمتشعب، بصورة أفضل (Khaleefa, Erdos & Ashria,1996a, 1996b,1997).

وفي تصنيفات الموهبة، ربما يمكن وصف الطفل بأنه «طفل خارق» (Child prodigy)، ويعرف الطفل الخارق بأنه الطفل الذي يكون عمره أقل من 10 سنوات، ويقوم بأعمال الراشدين. أو أن يقوم الطفل ببعض الأشياء والتي في نظر غالبية الراشدين بأنها غير عادية ولافتة للانتباه (Morelock & Feldman, 2000). وحقيقة كانت محاضرات، وأبحاث، وأحاديث، ومناقشات، واهتمامات الطفل لافتة للنظر. وأثبتت الدراسات بأن مجموعة من الموهوبين العظام من الراشدين كانوا أطفالاً خوارق (الخليفة، 2002). ومجموعة كبيرة من الذين قدموا إسهامات مشهودة في الرشد لهم علامات مميزة لنبوغهم في الصغر. ولكن يجب القول كذلك، إنه ليس بالضرورة أن يكون كل العباقرة العظام في صغرهم أطفال خوارق، أو متعددي المواهب، أو متعددي الذكاءات. وربما لم يلتفت أحد لمواهبهم أو ذكاءاتهم في الصغر.

وفي علم نفس الموهبة كثيراً ما تستخدم مصطلحات متداخلة لوصف هذه الفئة من الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. وهم تماماً مثل الأطفال المعوقين عقلياً، وحركياً، وبصرياً، وسمعياً،

وأطفال التوحد يحتاجون لعناية خاصة. ومن بين هذه المصطلحات المتداخلة «موهوب» وهي الأكثر شيوعاً (المفهوم الأمريكي)، وعالي القدرات (المفهوم الأوربي)، ومتفوق، ونابغة، وبارع، وذكي، ومتميز، ومبدع (جروان، 1998، 2002). ويستخدم مفهوم الحكيم البدائي، والحكيم الأبله لفئة خاصة من بين هؤلاء الأطفال. ولا يستخدم مصطلح عبقري للطفل بينما يستخدم فقط للراشد، ولكن ما يقابل العبقرية في الكبر هو مصطلح «الطفل المعجزة» و«الطفل الخارق» (Heller, et al., 1993; Merlock & Feldman, 2000). وقد استخدمنا في الجزء الأول من هذه الدراسة مصطلح «طفل نابغة»، و«طفل باحث» وربما نفضل بعد هذا العرض المفاهيمي أن نستخدم مصطلح «طفل خارق» وهو الأكثر تعبيراً عن حالة الطفل.

كعادة الأطفال الخوارق، أو الأطفال، متعددي المواهب، أو متعددي الذكاءات، يقضي سمبر وقتاً مقدراً من زمنه في القراءة ما بين 4-6 ساعات في اليوم الواحد. وتحتوي مكتبته قبل سن العاشرة، على 223 من الكتب والمجلات والتي قام بقراءتها جميعها وربما كرر قراءة البعض منها. وتحتوي هذه المكتبة بصورة خاصة على 10 كتب تتعلق بعالم الفضاء والفلك. وفي عمر 7 سنوات، كان أول كتاب يقوم بقراءته هو كتاب «حقائق مدهشة عن الفضاء»، وربما عزز هذا الكتاب عشقه لعالم الفضاء مع تأثيرات أخرى ذكرت سابقاً في هذه الدراسة. كما تحتوي مكتبته كذلك على حوالي 30 أسطوانة مدمجة، و40 من أشرطة الكاسيت التعليمية. وتحتوي الأسطوانات على مواد تعليمية تشمل القرآن، واللغة الإنجليزية والسيرة، والصحابة، بينما تحتوي الأشرطة على القرآن الكريم، والقصص، والمحاضرات.

ولكن مع عشق الطفل للقراءة فإنه لا يميل كثيراً لعملية الكتابة والتوثيق؛ ولهذا السبب شجعته الأسرة خاصة الوالد بالقيام بكتابة بحث عن «النجوم» لبناء اتجاهات ايجابية نحو الكتابة والتوثيق. وذلك عكس شقيقه الأصغر الذي يهتم كثيراً بالترتيب والتنظيم مع الملاحظة الدقيقة والتي يتفوق فيها على «سمبر». فقد حفظ سمبر 4 أجزاء من القرآن الكريم في شهر واحد، بينما حفظ شقيقه الأصغر جزأين خلال الفترة نفسها، وذلك مع صغر سنه، فضلاً عن ذلك يمتاز بجمال الخط والذي يستخدم فيه اليد اليسرى في الكتابة. وفقاً لذلك ربما يكون مركز تحكم الشقيق الأصغر في نصف الدماغ الأيمن والذي يتعزز فيه التآزر البصري الحركي، والموسيقى، والرسم، والخيال، والإبداع. عموماً ربما تكون هذه هي سمات هذا الطفل، والذي لم تتم عملية إجراء دراسات سيكولوجية مكثفة عنه مقارنته بأخيه سمبر.

وربما يمكننا القول كذلك إن مركز تحكم الطفل سمبر ربما يكون في نصف الدماغ الأيسر، وهو الذي يختص باللغة، والمنطق، والرياضيات، والعلوم (ذكاءات سمبر المتعددة). وفقاً لذلك الفهم، ربما يعمل نصف الدماغ «الأيمن» للشقيق الأصغر بصورة أفضل، وربما يعمل نصف الدماغ الأيسر «لسمبر» بصورة أفضل. بوسعنا التساؤل هنا بالنسبة لأخوين شقيقين كيف يعمل نصف دماغيهما الأيمن والأيسر بصورة مختلفة؟ يحتاج مثل هذا الافتراض لمزيد من الدراسات السيكولوجية والفسيولوجية. ويشعر الوالدان بأن قدرات الشقيق الأصغر لا تقل عن قدرات سمبر، ويحسان بأن في داخله شيئاً ما، ولكن ربما لعدم حظ الطفل، أو لعدم خبرتهما لم يستطيعا الوصول إليه.

ما السمات الشخصية للطفل سمبر؟

من خلال العرض السابق، ومن جراء مقابلات مع أسرة الطفل، ومن خلال نتائج المقاييس السيكولوجية المطبقة على الطفل، ومن خلال ملاحظات شخصية يلاحظ أن الطفل يمتاز بعدد من السمات الشخصية التي يتميز بها الأطفال الخوارق، ومن بينها معدل نمو متسارع مقارنة مع بقية الأطفال العاديين، واهتمامات مبكرة بالقراءة، وبصورة أقل بالكتابة، خاصة قراءة القصص، كما لا يتجنب قراءة الكتب الصعبة مقارنة بعمره ككتب الفلك مثلاً. كما يمتلك حصيلة غير عادية من المفردات التي يستخدمها بصورة معبرة في أثناء الحديث الرسمي في التمدرس، وربما في أثناء المحادثات العادية التي يتكلم فيها الآخرون اللغة الدارجة. كما للطفل قدرة فائقة من التذكر واسترجاع المعلومات، كما يتميز بالانتباه اللافت للنظر، والتركيز الشديد، وقوة الملاحظة، والاندماج في المهمة.

وكان الطفل مغرماً بالأرقام عامة، والقياسية بصفة خاصة. كما يهتم كثيراً بالغرائب والعجائب والأشياء الغامضة خاصة الشعر. وفي عمر 8 سنوات، قرأ كتاب «ألف ليلة وليلة». كم من الأطفال من قرأ هذا الكتاب الرائع؟ أو كم من الراشدين كذلك؟ وكعادة الأطفال الخوارق، هو حب المغامرة،

والغموض، والتعقيد، ونسبة لتعقيد ذهنهم يحاولون كشف المحجوب، وحل المعقود كنوع من التحدي. ومن بين سماته الشخصية الأخرى، التنافس الشريف، وكراهية الظلم والمحاباه. ومن بين سماته الإبداعية، حب الاستطلاع وطرح الأسئلة غير المتناهية، وتتسم حلوله المقدمة بالفرادة، كما لديه حساسية عالية تجاه قدراته. وكثيراً ما يطرح وجهة نظرة بصراحة وجرأة من غير اهتمام كثير باستجابة الآخرين.

ومن سماته الشخصية و الاجتماعية، مشاركة الكبار في النقاش، فمثلاً قدم خطاباً نيابة عن أطفال السودان أمام النائب الأول لرئيس الجمهورية، وجلس إلى جانبه يتناقشان. كما وجه الطفل سؤالاً مكتوباً للعالم أحمد زويل، الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء، في أثناء زيارته للسودان عام 2004 لتقديم محاضرة عن الفيمتو ثانية بقاعة الصداقة بالخرطوم. كما قدم الطفل كذلك محاضرة عن «الثقوب السوداء» عام 2004 أمام الأستاذ طارق السويدان مما جعله يصطحبه معه في برامجه طوال اليوم. ربما يكون ذلك انعكاساً للجو الديمقراطي الذي يعيش فيه في ظل الأسرة الكريمة، والاستغراق في بعض المهارات الفردية مع الروح الاجتماعية في مشاركة الكبار. ويلاحظ الأب، أنه خلال عملية التسريع وقفز الصفوف كان يبني علاقات جديدة مع الزملاء والأصدقاء بالصف الذي تم تسريعه إليه من غير أن يقل اهتمامه كثيراً بالزملاء والأصدقاء السابقين. وفي أم ضوابان، اختار صديقاً عمره 17 عاماً، كما لا يميز كثيراً في علاقاته بين الأولاد والبنات. وكثيراً ما يناديه زملاؤه وأصدقاؤه «هوبا» وصعب علي أن أجد لها معنى؟

ما الملاحظات السالبة في شخصية الطفل؟:

أولاً، ربما تكون واحدة من الملاحظات في حالة الطفل التي ربما لا تنطبق على بعض شروط التسريع هي النمو الجسدي، إذ يمتاز الطفل ببنية جسدية نحيلة بل صغيرة الحجم مقارنة مع أقرانه، ولكنها على أية حال بنية صحية. وقد أشارت ملاحظات الأسرة في عدم استمراره في الروضة الإنجليزية بالإمارات بسبب عدم اكتمال نمو عضلات اليد وهي متطلب مهم للكتابة من خلال عملية التآزر البصري الحركي. ولعلي أتساءل، بل أدهش غاية الدهشة، كيف تحمل هذه البنية الجسمية النحيلة والصغيرة هذه المواهب والذكاءات المتعددة؟ ويمكن تسجيل ملاحظة أخرى، ربما ترتبط بهذه النقطة، وهي عدم جمالية الخط الذي يخطه الطفل، وبكلمات أخرى قبحية، بل رداءة خط الطفل. وربما يمكن تجاوز الأخيرة بمزيد من عملية التدريب على أقل تقدير بالنسبة لوضوح الخط. وواحدة من المعالجات المقترحة لتحسين الخط هي عملية التدريب على الكتابة ربما بقلم البوص على اللوح في مسجد أم ضوابان.

ثانياً، يمكن تسجيل ملاحظة سلبية أخرى، قد تتعلق بعملية تأثيره على أخيه الأصغر في المنزل. فاختلاف نوعية ومقدار التدعيم ربما يؤثر سلباً على الآخرين، ويمكن تجاوز هذه المعضلة بنوع من الموازنة في تدعيم الجهد المقدم من قبل الأطفال ربما بصورة دبلوماسية. وربما تحتاج الأسرة في هذه الحالة إلى جهود المختصين العلمية وخاصة الحاجة إلى مرشد نفسي في مجال الموهبة والتفوق لتقديم استشارات للأسرة بخصوص كيفية التعامل معه في المنزل، وكذلك التعامل مع أخيه فضلاً عن رعايته. ولقد قدم كاتب البحث كتابين للأسرة عن الإرشاد النفسي للأطفال الموهوبين، وهما كتابا «توجيه الطفل المتفوق عقليا»، الذي أصدرته الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية (ويب، وميكستروث، وتولان، 1985)، وكتاب «رعاية الموهوبين إرشاد للآباء والمعلمين»، والذي قامت بتأليفه المربية سلفيا ريم (2003)، الخبيرة فائقة الشهرة في مجال تربية الموهوبين في العالم. وفقاً لإفادة الوالد كانت الكتب المقدمة دليلاً لهم في الإجابة عن كثير من التساؤلات الخاصة بالتعامل مع الأطفال الموهوبين.

ثالثاً، كعادة الأطفال النوابغ يقضي سمبر وقتاً مقدراً من زمنه في القراءة ما بين 4-6 ساعات في اليوم، ولكن لا يميل كثيراً للكتابة. ويبدو في هذه الحالة أن الطفل يسبح في تيار الثقافة السودانية، والتي كثيراً ما توصف بأنها ثقافة شفاهية، وثقافة سماعية، وثقافة غير توثيقية، وثقافة غير بصرية (Khaleefa, 1999a). وإن هذا الميل المبكر لعدم الكتابة، ربما يكون هو الميل الذي يعاني منه بعض الموهوبين في السودان، وذلك بعدم الاهتمام كثيراً بالكتابة أو بضعف عملية التوثيق. راجع الدراسة الخاصة بالموهوبين السودانيين والمنشورة في «المجلة العالمية للموهبة والتفوق» (Khaleefa, 1999b).

رابعاً، يوصف الطفل بنوع من الفوضى وعدم النظام في بعض جوانب حياته، مثلاً، يلاحظ أنه عندما يعود من المدرسة لا يخلع ملابسه إلا بعد أوامر متتابعة من الوالدين، وبعد ذلك لا يضعها في أماكنها المحددة، وربما يضعها في الكرسي أو على السرير. وغالباً عندما يستعد للذهاب للمدرسة في الصباح الباكر لا يعرف أين ملابسه التي وضعها بالأمس، وكثيراً ما يحتاج لمساعدة في ذلك. ولكن أظهرت الملاحظات، أن الفوضى أو عدم النظام نادراً مايحدث في المدرسة، أو مع كتبه، أو كراساته، أو أقلامه، أو في تسلسل أفكاره. وكثيراً ما لا يصرف مصروفه اليومي، وربما يفضل أن يضعه في حصالة التي تصل إلى حوالي 50 ألفاً من الجنيهات. ويلاحظ أن أخاه قد يبادر للخروج للعب مع بقية الأطفال في الشارع بعد استئذان، أما سمبر فنادراً ما يخرج، وإنما يفضل أن يقضي وقته في القراءة.

خامساً، ملاحظة أخرى أذكر في أثناء المخيم الصيفي الإثراني للأطفال الموهوبين والمنعقد في صيف 2004 وجهت الدعوة لمدير جامعة الخرطوم، وذلك لتقديم محاضرة للأطفال الموهوبين بعنوان «هل هناك حياة خارج الأرض؟ واستجاب مدير الجامعة مشكوراً»، وقدم محاضرة قيمة للأطفال. ولما انتهت المحاضرة، وفتح الباب للحوار والمناقشة والأسئلة تقدم الطفل سمبر، وحاول من أول وهلة أن يعلق بصورة جريئة وناقدة، ومن غير تحفظ، عن معلومات في تقديره غير صحيحة قدمها المحاضر، ومن غير اهتمام كثير بالوضع العلمي لبروفيسور كبير، وأستاذ للفيزياء بجامعة الخرطوم. وربما تعكس هذه الاستجابة نوعية موقفه اللاحق من الثوابت والرواسخ العلمية في مجال موهبته (الخليفة، 2002).

ما أصل موهبة الطفل؟:

من منظور أصل الموهبة، يمكن أن نطرح عدة تساؤلات، أولاً: هل موهبة الطفل هي موهبة فطرية بحتة من خلال الجينات والكروموزومات المنتقلة من الوالدين للطفل؟ أو موهبة من أحد الوالدين؟ وفي هذه الحالة، ما مقدار مساهمة الأم في موهبة الطفل؟ ولقد نبغت الأم، مهندسة زراعية، خاصة في مجال الرياضيات حيث أحرزت أعلى درجة في الرياضيات في محافظة كردفان عندما امتحنت للشهادة الابتدائية، ونشرت الصحف المحلية بكردفان هذه النتائج. ووفقاً لنبوغها المبكر اقترحت إحدى المعلمات بمدينة الأبيض تسريعها الدراسي من الصف الثالث إلى الخامس، ولكن لم توافق الأم في طفولتها. وكانت الأم ناشطة، وعضواً في المجلس الأريعيني لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم. ربما نتساءل هنا: هل ورثت الأم النبوغ في الرياضيات لابنها؟

ومن جهة أخرى، بوسعنا التساؤل ما مقدار مساهمة الأب في موهبة الطفل؟ ويعمل الوالد معلماً للغة العربية في مرحلة الأساس، وفي المدرسة ذاتها التي يدرس فيها طفله. ويبدو أنه نموذج رائع للأب الذي يرعى ويدرب، بل ويدفع أطفاله الموهوبين، ويجيب بل يصبر على تساؤلاتهم. وفي تجربة شخصية معه، كان مدققاً حاذقاً لكتاب «علم النفس في التراث العربي الإسلامي» لمؤلفه بروفيسور الزبير بشير طه (طه، 1995). وقد نتساءل هنا هل ورث الأب النبوغ في اللغة العربية لابنه سمبر؟ وهل ورثه جده الاهتمام بعالم الفضاء والمعرفة بالأفلاك؟ ويوسعنا التساؤل مجدداً، ما درجة التفاعل الوراثي بين مساهمة الأم ومساهمة الأب ومساهمة الجد في موهبة الطفل؟

ثانياً، بوسعنا التساؤل من ناحية أخرى، هل موهبة الطفل ترجع للتقاليد الأسرية المتمثلة في التربية الصارمة، والبيئة التعليمية الثرة، أوالتدعيمات المحفزة كما رأينا في هذه الدراسة؟ فهل الموهبة في هذه الحالة هي تفاعل بين اجتهاد الطفل وجهد الأسرة؟

ثالثاً، نتساءل هل موهبة الطفل هي تزاوج ما بين الموهبة الفطرية (الوراثة) والموهبة المكتسبة (البيئة)؟ وفي هذه الحالة، ما مقدار مساهمة الوراثة في موهبة الطفل، وما مقدار مساهمة البيئة؟ وما درجة التفاعل بين الوراثة والبيئة في موهبة الطفل؟

رابعاً، نتساءل هل موهبة الطفل في حقيقة الأمر ليست لها علاقة بالوراثة والبيئة أم هي هبة، ومنة، وعطية، ومنحة؟ وفي هذه الحالة، قد لا نجد إجابة للسؤال أيهما السبب وأيهما العرض؟ وكحالة بعض الأطفال الخوارق، أو الأطفال متعددي المواهب، أو متعددي الذكاء قد لا نجد تفسيرات علمية.

مشروع طائر السمبر:

ربما يكون واحدا من المشاريع البحثية التي يقوم بها «مشروع طائر السمبر» في السودان، وهو مشروع مشابه لمشروع لويس تيرمان الشهير في أمريكا والخاص بالكشف عن الأطفال الموهوبين ومتابعتهم من الصغر حتى الكبر (Terman, 1925,1954; Terman & Oden, 1947). ويقوم حالياً بعض الباحثين في مشروع طائر السمبر بإجراء دراسات حديثة ولأول مرة في تاريخ التربية والسيكولوجيا في السودان. تشمل مثلاً، هذه الموضوعات أساليب الكشف عن الموهوبين في الخرطوم، ودارفور، والنيل الأبيض، وتطبيقات الذكاءات المتعددة في السودان، وتكييف مقياس وكسلر لذكاء الأطفال في السودان، وتوطين مفاهيم ونظريات ومناهج علم النفس في السودان، وبنيات علم النفس في السودان، والإرشاد النفسي للأطفال الموهوبين، والسمات الشخصية للأطفال الموهوبين، والتسريع الدراسي للأطفال الموهوبين، والذكاء الوجداني في السودان، والدافعية والقيادة وسط الأطفال الموهوبين، والموهبة القيادية وسط أوائل الشهادة السودانية وأعضاء اتحاد طلاب جامعة الخرطوم، والباحثين الموهوبين بوزارة العلوم والتقانة، وانخفاض التحصيل الدراسي وسط الأطفال الموهوبين، والموهبة البصرية، والموهبة وسط الأطفال المعوقين. وهناك فكرة لبحث واختبار نظرية الذكاء الناجح ونظرية الذكاء العلمي لاستينبيرج في السودان. وعموماً يهدف مشروع طائر السمبر لتوطين علم النفس في البيئة المحلية في السودان (بدري، 1989، حسين، 2005؛ الخليفة، 2001، 2003؛ طه، 1995).

كيف تم التعرف على الطفل سمبر من خلال مشروع طائر السمبر؟ في عام 2004، نال سمبر أعلى الدرجات في القدرات العقلية بين كافة أطفال الحلقة في المدرسة وعددهم 1040 طفلاً، وذلك في مصفوفة شملت (أ) درجات الذكاء (ب) درجات الرياضيات (ج) التحصيل الدراسي (د) الإبداع (هـ) السمات الشخصية. وبلغ مجموع درجاته في مصفوفة الكشف 351 درجة، بينما كانت درجة الطفلة الثانية في المصفوفة 344 بفارق 7 درجات، والتي نالت أعلى درجة في الإبداع بمتوسط (85)، بينما نال سمبر متوسط (80) (عطا الله، 2004). وظهرت الطفلة الثانية كثيراً في بعض برامج الأطفال، وفي بعض المهرجانات، كما شاركت في برامج رائعة في التلفزيون السوداني قبيل الإفطار في شهر رمضان. بينما كانت درجة الطفلة الثالثة في مصفوفة الكشف عن الموهوبين هي 331 درجة، وذلك بفارق 20 درجة من الطفل «سمبر» (عطا الله، 2004).

كما نال الطفل «سمبر» كذلك درجة عالية في مقياس الذكاء اللفظي (148) في الطبعة الثالثة من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال، وهي تعادل أكثر من 3 انحرافات معيارية من متوسط الذكاء وهو 100. وكانت درجات الطفل في مؤشر التنظيم الإدراكي 122، ومعامل الذكاء الكلي 137، ومؤشر التحرر من تشتت الانتباه 137، بينما بلغت درجته في مؤشر الاستيعاب اللفظي 146 (الخليفة، 2004). ولمزيد من نتائج الدراسات الخاصة بدرجات الذكاء في السودان. أنظر الخليفة وطه وعشرية، (1995)، و الخليفة وعشرية (Khaleefa & Ashria, 1995).

ما مستقبل الطفل سمبر؟:

ربما نجدد التساؤل في هذا الجزء من الدراسة بصورة أكثر حساسية، كيف يمكن التنبؤ بغد الطفل سمبر الذي يشرئب للمستقبل؟ وفي أي اتجاه يتحرك مؤشر البوصلة عندما تتوهج مواهب وذكاءات الطفل؟

أولاً: يمكن القول بأمان إن الطفل يمتلك موهبة فطرية في الصغر. موهبة يمكن وصفها، بلغة الزراعة أو البستنة، بالبذرة المغلقة بإحكام. ولكن يمكن القول إنه ليس هناك طريق مباشر بين الموهبة الفطرية في الصغر والنبوغ في الكبر من جهة، وبين البذرة المغلقة بإحكام وعملية التبرعم من جهة أخرى.

ثانياً: إن هذه الموهبة الفطرية أو البذرة المغلقة لا يمكن أن تتفتح أو تتبرعم من غير دعم ورعاية مستمرة مع تدريب صارم في الكبر و العمل لساعات مستديمة من الوقت في مجال مواهبه المتعددة. فالنظام الذاتي والدافعية حاسمان جداً لمستقبل موهبة الطفل سمبر ربما أكثر من عملية الدفع الخارجي.

صحيح جداً هناك أهمية لشخص ما يدفع أباً أو معلماً، ربما يكون أحياناً برفق ورقة، وقد يكون دفعاً قاسياً من المعلم أو المدرسة أو الإعلام أو الزملاء أو الجمهور، وربما الحسدة، ولكن أحياناً لسوء

الحظ يجعل الطفل بعيداً عن مجال مواهبه (الخليفة، 2002). يبدو في هذه الحالة، أن نوع الدفع الأسري المناسب والمتوازن هو الذي يساعد على تحديد الحصيلة النهائية للطفل. فحقيقة، أن الرعاية الأسرية الجيدة في ظل شراكة ذكية مع المدرسة تجعل البذرة المغلقة تتفتح برفق، ثم تتبرعم، ثم تزهر، ومن بعد تأتي بثمار جيدة. وبتلك الخطوات (المتمرحلات) يتحرك مؤشر البوصلة في الاتجاه الصحيح.

ثالثاً، هذه المواهب المتعددة للطفل، ربما لا تثمر جيداً من غير الانتباه لجوانب النمو المختلفة للطفل، ونقصد تحديداً التوازن التام بين جوانب النمو العقلي، والنمو الوجداني، والنمو الاجتماعي، والنمو الجسدي، فضلاً عن النمو الروحي. ولكن هناك بعض مشكلات عدم التوازن التي قد تحدث بصورة تلقائية أو فجائية بين جوانب النمو المختلفة في إحدى المراحل النمائية خاصة عندما يبدأ الطفل في التأمل والتبصر في مجال موهبته. وقد يتساءل الطفل لماذا هو متعلق بشدة بمجال موهبته؟ (الخليفة، 2002)، هل لأنه يحقق أحلام أبويه؟ هل يحقق أحلام مدرسته وجامعته؟ أم يحقق أحلام عشيرته وسلالته؟ أم يحقق أحلام السودان؟ أم يحقق أحلام أمته؟ أم لا هذا ولا ذاك إنه فقط يحب مجال موهبته؟.

رابعاً، ما وضع الحقل الذي يبدع فيه الطفل في المستقبل؟ مثلاً، إذا اختار الطفل الفيزياء الكمية، أو الأحياء الدقيقة، أو الكيمياء العضوية، أو الذكاء الصناعي، أو العلم المعرفي، أو الرواية، أو العلوم السياسية، أو القانون الدستوري، أو علم نفس الموهبة كمجال للتخصص. وربما يمكن أن يكون عالم الفضاء في أول هذه الاختيارات أو الحقول، وذلك لأن الطفل سئل في صيف عام 2004 عن أحلامه المستقبلية فذكر أنه يحلم باكتشاف جديد في عالم الكواكب (الخليفة، 2004). فهذا النوع من الأحلام بمثابة قطعة من الخيال العلمي ويسبق الخيال عادة الواقع بسنوات. فنحن على أمل أن تتحقق أحلام الطفل «سمبر»، وذلك عندما يطير فرخ طائر السمبر محلقاً بحرية في فضاء السودان الواسع.

فياترى ما وضع وتطور هذا المجال الذي يختاره الطفل ويتخصص فيه، وذلك إذا واصل تعليمه للبكالريوس، والماجستير، والدكتوراه، والدكتوراه العليا، ونال الأستاذية بعد الثلاثين من العمر؟ ما درجة تحديه بالإتيان بجديد في مجاله؟ وما درجة تحدي القوانين والرواسخ والثوابت في مجاله؟ كطفل متعدد المواهب، ربما عمل في صغره على ترضية القواعد الراسخة في أسرته ومدرسته وبيئته (Khaleefa, 2002). ولكن السؤال التنبؤي كيف تكون استجابته عندما تبدأ مساهمته الحقيقية في الكبر؟ هل يمتلك درجة معينة من التوتر والقلق، أو نوعية محددة من أساليب التوازن والتكيف لمجابهة التقاليد الراسخة في مجاله بدرجة من المجاملة، أو السياسة أو الدبلوماسية؟

ربما نتساءل هنا ماذا يحدث في حالة عدم تذوق مواهب الطفل «سمبر» المختارة من قبله بحرية وفردية في المستقبل؟ مثلاً، إذا تمرد واختار عالم الموسيقا، أو النحت، أو الدراما، أو الإخراج السينمائي، أو النقد؟.

خامساً، ما الوضع السياسي والأمني للسودان في الوقت الذي يقدم فيه الطفل مساهمات حقيقية مثلاً عام 2020؟ مثلاً، هل يخطط السودان في ذلك التاريخ بناء مفاعل نووي، وقاعدة فضائية، وإطلاق قمر للفضاء، واكتشاف في هندسة الجينات.

سادساً، ربما ترتبط بالنقطة السابقة السؤال المتعلق بماهية الوضع الجيوبلوتيكي في الشرق الأوسط، وكيف يكون توازن القوى في المستقبل؟

ويمكن القول بصورة أخرى، يحتاج الطفل لذكاء وإبداع والتزام متفاعل، ونمو جسدي وعقلي ووجداني وروحي متكامل، وجو ثقافي واجتماعي وعلمي وسياسي غير متآمر. يبدو أنه إذا تحققت هذه التفاعلات والنماءات والأجواء سوف يتحرك مؤشر النبوغ نحو الموهبة. وبوسعنا القول إنه في هذه الحالة ربما يكون هناك مسار ما بين النبوغ المكتشف في الصغر والموهبة في الكبر، وأخيراً تحدد العوامل التاريخية، والمزاجية، والحظ السعيد، قيمة الاعتراف بالمساهمة العلمية أو الأدبية المقدمة في سن الرشد.

قادة العالم والاهتمام بالأطفال الخوارق:

تهتم الدول المختلفة بأطفالها الموهوبين والنابغين خاصة الأطفال الخوارق والمعجزات (Davis & Rimm, 1989; Delisle, 1992; Feldhusen, 1992; Fox, 1979; Frost, 1981; Kullic, 1992;

McDaniel, 1991; Renzulli & Reis, Rimm, 1992, 1985; Rogers, 1991; Stanley, 1978). ونجد بعض دول العالم، مثلاً، أمريكا، وبريطانيا، وألمانيا، وإسرائيل أن جامعاتها تفتح أبوابها لبعض الأطفال الخوارق في عمر 10-15 سنة. فهل تفتح جامعة الخرطوم أبوابها الموصدة للأطفال الموهوبين؟ وفي بعض الدول الأخرى، نجد أن دولة مثل فنزويلا قامت بانشاء وزارة بأكملها تسمى «وزارة الذكاء» تبحث عن معامل الذكاء العالي وسط أطفالها الموهوبين، واقترح بروفسير الزبير بشير طه، رئيس الجمعية النفسية السودانية، تكوين وحدة لأبحاث الذكاء في السودان، وذلك في الحلقة التي نظمتها وزارة التربية والتعليم بولاية الخرطوم عن تعليم الموهوبين في عام 2004.

وتهتم إسرائيل بأطفالها الموهوبين من خلال برامج مختلفة في الجامعات والمراكز البحثية فضلاً عن وزارة التربية (Milgram,1980; Rachmel, 1997; Subhi & Maoz, 2000)، وتبحث تايلندا عن 800 طفل خارق مدفونين في مزارع الأرز في قراها، ومن ثم تعمل على رعايتهم تحت إشراف مباشر من رئيس الوزراء ثاكسين. وكان مهاتير محمد يرعى الأطفال النوابغ في ماليزيا، ويرسلهم في البعوث الدراسية. ودخلت الطفلة الماليزية صوفيا عبقرية أكسفود الشهيرة الجامعة في عمر مبكر. كما ترعى إيران أطفالها الخوارق، ومن بينهم طفلها المعجزة محمد طبطبائي، الذي حفظ القرآن كاملاً تجويداً وتفسيراً في عمر 7 سنوات، وبعدها نال البكالريوس والماجستير والدكتوراه في الدراسات الإسلامية. وقام بشار الأسد باستقبال الطفل السوري الخارق عبد الحميد حيدر الذي أظهر تفوقاً مذهلاً في الرياضيات، وحقق نجاحاً غير مسبوق في امتحان أمريكي للرياضيات. وفي العالم العربي، قامت الأردن بأحدث تجربة في عملية الكشف وتربية أطفالها الموهوبين تحت رعاية الملكة نور الحسين من خلال حملة دعم كبيرة قادها جلالة الملك الراحل بخصوص مدرسة اليوبيل، كما قامت السعودية بالكشف عن أطفالها الموهوبين تحت رعاية خاصة من مؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله لرعاية الموهوبين.

وفي أمريكا، وفي ظل اهتمامها بأطفالها النابغين تعلم الطفل الخارق جون كارتر القراءة والكتابة في عمر 4 سنوات، والجبر في 9 سنوات، وقرأ 1643 كتاباً في سن التاسعة، ونال درجة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة اركنساو في عمر 19 سنة، وكان قادراً على إنجاز عمل من النوع الذي يؤهل صاحبه لنيل جائزة نوبل في الفيزياء. بوسعنا التساؤل أين رعاية السودان للطفل «سمبر» كما حدث لنظيره كارتر في أمريكا؟ كما ترعى بريطانيا أطفالها ذوي القدرات العالية حتى من غير البيض، ومن بينهم طفلها الخارق «المسلم، والأسود، والفقير» أحمد لقمان الذي أحرز معامل ذكاء مذهلاً يبلغ 150 في مقياس وكسلر لذكاء الأطفال. وعقدت له هيئة الإذاعة البريطانية برنامجاً خاصاً بذلك.

خلاصة:

إن هؤلاء الأطفال الخوارق تمت عملية اكتشافهم بصورة مبكرة فضلاً عن رعايتهم بأسس رعاية الموهوبين الحديثة، ربما يتوقع أن يصنعوا المعجزات في تاريخ العالم العربي السياسي والاقتصادي والعلمي والاجتماعي. وبوسعنا التساؤل، كم طفل خارق غير «سمبر» لم تتح له فرصة الكشف المبكر في العالم العربي؟ وكم عدد البذور المغلقة بإحكام من الأطفال الخوارق والمدفونة في قرى وبوادي ونجوع العالم العربي؟ كم عدد اللآلئ من الأطفال الخوارق المدفونين بين الصدف والمحار؟ وكم كمية الماس الأسود من الموهوبين الذكور، وكمية الماس الوردي من الموهوبات الإناث من الخارقين مدفونين وسط الصخور في العالم العربي؟ ففي العام الدراسي 2002-2003 تم اكتشاف 30 طفلاً موهوباً، وفي العام الدراسي 2003-2004 تم اكتشاف 55 طفلاً موهوباً خلال مشروع طائر السمبر. وبكل أمان، يمكن القول إن هذه المجموعة المكتشفة في مشروع طائر السمبر هي مجموعة موهوبة وفقاً لمواصفات عالمية وفي أي قائمة مهما تكن انتقائية. بينما في العام الدراسي 2004-2005 تم الكشف عن 150 طفلاً موهوباً من قبل وزارة التربية والتعليم بولاية الخرطوم في أضخم مشروع من نوعه في السودان.

ما الدروس المتعلمة من السيرة الذاتية للطفل سمبر؟:

ربما تفتح سيرة الطفل سمبر باباً للتوصيات والاقتراحات، أو الدروس والعبر لرسم السياسات التربوية والسيكولوجية للأطفال الموهوبين.

(أ) أهمية إجراء مسوح قومية للبحث عن الأطفال الموهوبين والخوارق.

(2) وضع تشريعات عاجلة بخصوص التسريع الدراسي للأطفال الموهوبين.

(3) ضرورة تصميم البرامج الإثرائية للأطفال الموهوبين.

(4) إنشاء مراكز الإرشاد النفسي للأطفال الموهوبين في المدن الكبرى.

(5) إنشاء مراكز الرعاية الخاصة بالأطفال الموهوبين والحقائق العلمية.

(6) تنظيم أولمبياد الرياضيات، والعلوم، والتقانة والمشاريع العلمية للموهوبين.

(7) إنشاء وحدة أبحاث الذكاء بإحدى الجامعات.

(8) وضع سياسات للبحوث التربوية والسيكولوجية في مجال الموهبة.

(9) إنشاء الجمعية السودانية لرعاية الموهوبين لخلق شراكة ذكية بين المدرسة والأسرة.

(10) تقديم الدعم الخاص للأطفال الخوارق من قبل الدولة.

المـــراجـــع

المراجع العربية:

بدري، مالك (1989). مشكل أخصائي النفس المسلمين. ترجمة منى أبوقرجة. الخرطوم: شركة الفارابي.

جروان، فتحي (1998). الموهبة والتفوق والإبداع. العين: دار الكتاب الجامعي.

جروان، فتحي (2002). أساليب الكشف عن الموهوبين ورعايتهم. عمان: دار الفكر.

حسين، حاج شريف (2005). توطين علم النفس في السودان: تحليل رسائل الماجستير في بعض الجامعات السودانية 1990-2002. رسالة ماجستير غير منشورة، الخرطوم، السودان.

الخليفة، عمر (1997). خمسون عبقرية من العلم العربي: دراسة بايوغرافية. الثقافة النفسية، 8.31-48.

الخليفة، عمر (1999). التربيون العرب: دراسة بيوغرافية. مجلة علوم التربية، 8.9-25.

الخليفة، عمر (2000). هل الطفل آية متخلف، عادي أم موهوب؟ مجلة الطفولة العربية، 2.26-53.

الخليفة، عمر (2001). علم النفس التجريبي في التراث العربي الإسلامي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الخليفة، عمر (2002). الموهبة الموسيقية عند الأطفال، مجلة الطفولة العربية، 4.112-116.

الخليفة، عمر (2003). مالك بدري رائد عملية توطين علم النفس في العالم العربي، ثقافة نفسية، 2.119-123.

الخليفة، عمر (2004). علم النفس والمخابرات. الخرطوم: الأمانة العامة للخرطوم عاصمة الثقافة العربية.

الخليفة، عمر (2004). مشروع طائر السمبر. ورقة غير منشورة، قسم علم النفس، جامعة الخرطوم.

الخليفة، عمر (2005). تسريع التلاميذ المتميزين في السودان. ورقة مقدمة لورشة تقويم المناهج الإثرائية لمدارس المتميزين والتي نظمتها وزارة التربية والتعليم بولاية الخرطوم في يوم 22 مارس 2005.

الخليفة، عمر، وطه، الزبير، وعشرية، إخلاص (1995). تكييف وتقنين مقاييس الذكاء في الثقافة العربية، المجلة العربية للتربية، 15.106-131.

الخليفة، عمر، وعطا الله، وطه، الزبير (2005). توطين أساليب معالجة بيانات الكشف عن الموهوبين في مشروع طائر السمبر بالسودان. ورقة مقدمة للمؤتمر العلمي الرابع للمجلس العربي للموهوبين والمتفوقين والمزمع عقده في عمان، الأدرن 14-16 يوليو2005 .

الخليفة، عمر.، والمطوع، محمد (2002). الفروق النوعية في الترجمة والتكييف البحريني لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال-الطبعة الثالثة. مجلة العلوم التربوية والنفسية، 3.104-133.

ديفز، جاري. وريم، سيلفيا. (2001). تعليم الموهوبين والمتفوقين. الطبعة الإنجليزية الرابعة. ترجمة: عطوف ياسين. دمشق: المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر.

ريم، سيلفيا (2003). رعاية الموهوبين: إرشادات للآباء والمعلمين. ترجمة عادل عبد الله محمد. القاهرة: دار الرشاد.

الزاكي، محمد الحاج الشيخ (أبريل، 2005). مقابلة شخصية، فندق الهيلتون، الخرطوم، 19 أبريل 2005.

طه، الزبير (1995). علم النفس في التراث العربي الإسلامي. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

عطا الله، صلاح فرح (2004). أسس الكشف عن الأطفال الموهوبين عقلياً بمرحلة الأساس. أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الخرطوم، الخرطوم.

عمر، مريم حسن (يناير، 2005). مقابلة شخصية، فندق القدس، عمان، الأردن.

مري، بنيلوبي (1996) (محرر). العبقرية: تاريخ الفكرة. ترجمة محمد عبد الواحد. الكويت: عالم المعرفة.

ويب، جيمس.، ميكسروت، اليزابيث.، وتولان، ستيفاني (1985). توجيه الطفل المتفوق عقلياً: مرجع علمي للآباء والمعلمين. ترجمة بشرى حديد. الكويت: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية.

المراجع الأجنبية:

Brody, L., & Benbow, C. (1987). Accelerative strategies: How effective are they for the gifted? Gifted Child Quarterly, 31 105-110.

Davis, G., Rimm, S. (1989). Education of the gifted and talented (2 ed). Needham Heights, MA: Allyn and Bacon.

Delisle, J. (1992). Guiding the social and emotional development of gifted youth. New York: Longman.

Feldhusen, J. (1992). Talent identification and development in education. Gifted Child Quarterly, 36, 123.

Feldman, D. (1980). Beyond universals in cognitive development. Norwood, NJ: Ablex Publishing Corporation.

Fox, L. (1979). Programs for the gifted and talented: An overview. In A. Passow (Ed.). The gifted and talented (pp. 104-126). Chicago: National Society for the Study of Education.

Frost, D. (1981). The great debates for enrichment. Paper presented at the meeting of the National Topical Conference on the Gifted and Talented Child, Orlando, FL.

Gardner, H. (1983). Frames of mind. New York: Basic Books.

Gardner, H. (1999). Intelligence reframed: Multible intelligences for the 21 st century. New York: Basic Books.

Gross, M. (1992). The use of radical acceleration in cases of extreme intellectual precocity. Gifted Child Quarterly, 36, 91-99.

Gross, M. (1993). Nurturing the talents of exceptional gifted individuals. In K. Heller, F. Monks, & A. Passow (Eds.). International handbook of giftedness and talent (pp. 473-490).

New York: Pergamon.

Heller, k., et al., (1993). (Eds.). International handbook of research and Development of giftedness and talented. Oxford: Pergamon.

Hollingworth, L. (1942). Children above 140 IQ Stanford Binet: Origin and development. New York: World Book.

Khaleefa, O. (1999a). Research on creativity, intelligence and giftedness: The case of the Arab world. Gifted and Talented International, 14, 21-29.

Khaleefa, O. (1999b). Who's who in the Sudan: A psycho-biographical study. Gifted and Talented International, 14, 100-101.

Khaleefa, O., Ashria, I. (1995). Intelligence testing in an Afro-Arab Islamic culture. Journal of Islamic Studies, 6, 222-233.

Khaleefa, O., Erdos, G., & Ashria, I. (1996a). Creativity, culture and education. High Ability Studies, 7, 157-167.

Khaleefa, O., Erdos, G., & Ashria, I. (1996b). Creativity testing in an indigenous Afro-Arab Islamic culture. The Journal of Creative Behavior, 30, 282-286.

Khaleefa, O., Erdos, G., & Ashria, I. (1996c). Gender and creativity in an Afro-Arab Islamic culture. The Journal of Creative Behavior, 30, 52-60.

Khaleefa, O., Erdos, G., & Ashria, I. (1997). Traditional education and creativity in an Afro-Arab Islamic culture. The Journal of Creative Behavior, 31, 201-211.

Kullic J. (1992). An analysis of the research on ability grouping: Historical and contemporary perspectives. Storrs, CT: The University of Connecticut.

Levitin, D., & Bellugi, U. (1998). Musical abilities in individuals with Williams Syndrome. Music Perception. 15, 357-389.

McDaniel, E. (1991). Individualization of instruction and some myths about education. Unpublishd paper. West Lafayette, IN: Purdue University.

Merlock, M., & Feldman, D. (2000). Prodigies, savants and Williams syndrome: Windows into talent and cognition. In K. Heller (Ed.).). International handbook of giftedness and talent (277-241). Oxford: Pergamon.

Merlock, M., & Feldman, D. (1999). Prodogies. In M. Runco & S. Pritzker (Eds.). Encyclopedia of creativity (pp. 449-456). Boston: Academic Press.

Milgram, R. (1980). Gifted children in Israel: Theory, practice and research. School Psychology International, 1, 10-13.

Pollins, L. (1983). The effects of acceleration on the social and emotional development of gifted children. In C. Benbow & J. Stanley (Eds.). Academic precocity (pp. 160-178). Baltimore: John Hopkins University Press.

Proctor, T., Black, K., & Feldhusen, J. (1986). Early admission of selected children to elementary school: A review of the research literature. Journal of Educational Research,80, 70-76.

Rachmel, S. (1997). Gifted education in Israel: A search for new directions. Paper presented at the 12th World Conference for Gifted and Tented Children, Seattle, Washington, USA.

Renzulli, H. (1979). What makes giftedness? A reexamination of the definition of the gifted and talented. Ventura, CA: Ventura County Superintendent of Schools Office.

Renzulli, H. (1986). The three-ring conception of giftedness: a developmenta model for creative productivity. In R. Sternberg & J. Davidson (Eds.). Conceptions of giftedness (pp. 53-92). Cambridge: Cambridge University Press.

Renzulli, J., Reis, S. (1985). The schoolwide enrichment model: A comprehensive plan for education excellence. Connecticut: Creative learning Press.

Rimm, S. (1992). On raising kids. Watertown, WI: Apple.

Rogers, K. (1991). The relationship of grouping practices to the education of the gifted and talented learners. Storrs, Ct: The University of Connecticut, The National Research Centre on the Gifted and Talented.

Stanley, J. (1978). Identifying and nurturing the intellectually gifted. In R. Clasen and B. Robinson (Eds.).

Simple gifts. Madison, WI: University of Wisconsin-Extension

Stanley, J. (1989). A look back at the educational non-acceleration: An international tragedy. Gifted Child Today, 12 50-61.

Subhi, T., & Maoz, N. (2000). Middle East region: Efforts, policies, programs and issues. In K. Heller, et al (Eds.), (2 ed.). International handbook of giftedness and talent (743-756). Oxford: Pergamon.

Terman, L. (1925). Genetic studies of genius. Vol. 1: Mental and physical traits of a thousand gifted children. Stanford, CA: Stanford University Press.

Terman, L. (1954). The discovery and encouragement of exceptional talent. American Psychologist, 9, 221-230

Terman, L., & Oden, M. (1959). Genetic studies of genious: Vol. 5. The gifted group at midlife: 35 years follow- up of a superior group. Stanford, CA: Stanford University Press.

Treffert, D. (1989). Extraordinary people: Understanding idiot savants. New York: Harper & Row.

Van Tassel Baska, J. (1981). The great debates: For acceleration. Paper presented at the meeting of the National Topical Conference on the Gifted and Talented Child. Orlando, FL.

Van Tassel Baska, J. (1986). Acceleration. In C. Maker (Ed.). Critical issues in gifted education. (pp. 179-196). Rockville, MD: Aspen Publishers.